



The eloquence of religious discourse in higher education And its role in addressing contemporary societal issues

Prof. Dr. Omran Jamal Hassan¹

Assist. Prof. Dr. Nawal Noaman Karim²

¹ University of Kirkuk, College of Education for Human Sciences

² University of Garmian, College of Education, Department of Arabic Language

Abstract This paper addresses an epistemological and educational problem at the intersection of Islamic studies and contemporary educational science: how does rhetorical quality in the juridical-religious discourse produced by higher education institutions fulfil its normative and formative function in addressing contemporary social challenges? The study departs from a critical premise: the current crisis of institutional religious discourse is not primarily a crisis of content or scholarly substance — for the inherited corpus of Islamic jurisprudence and exegesis is exceptionally rich — but rather a crisis of articulation, communication and persuasion: a fundamentally rhetorical crisis in its deep roots. The paper employs descriptive-analytical, critical-inductive and comparative methods, organised around two integrated principal axes: a theoretical-diagnostic axis that builds the conceptual framework, refines the terminologies of rhetoric and shariah discourse, dissects the rhetorical gap in Islamic higher education across its methodological, training, institutional, cultural and technological dimensions, and surveys exemplary rhetorical models from the Islamic heritage; and a practical-reformative axis addressing major contemporary social issues — identity crisis in digital space, intellectual extremism, family questions and AI-related ethical inquiries — and proposing a comprehensive strategic reform vision. The study concludes that Islamic academic institutions suffer a genuine multi-dimensional rhetorical gap requiring comprehensive methodological reform that integrates classical rhetorical heritage with contemporary communicative realities.

Keywords: Islamic rhetoric; institutional religious discourse; higher education; argumentation; pragmatics.

**بلاغة الخطاب الشرعي في التعليم العالي
ودورها في معالجة قضايا المجتمع المعاصر**

أ.د. عمران جمال حسن^١ أ.م. د. نوال نَعْمَان كَرِيم^٢
جامعة كركوك، كلية التربية للعلوم الإنسانية، قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية^١ جامعة جرمو، كلية التربية،
قسم اللغة العربية^٢

Nawal.noman@chu.edu.iq

الملخص:

يتناول هذا البحث إشكالية معرفية تربوية تقع في صميم الدراسات الإسلامية والتربوية المعاصرة، مفادها: كيف تُسهم بلاغة الخطاب الشرعي في مؤسسات التعليم العالي في معالجة القضايا المجتمعية المعاصرة، والاضطلاع بوظيفتها التوجيهية والتشكيلية في الواقع؟ وينطلق البحث من مقّمة نقدية مفادها أن إشكاليات الخطاب الديني المؤسسي في عصرنا ليست في جوهرها إشكاليات مضمون أو رصيد معرفي — فالموروث الفقهي والأصولي بالغ الثراء — بل هي إشكاليات صياغة وتبليغ وتواصل، أي إشكاليات بلاغية في جذورها العميقة. ويعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي والاستقرائي النقدي والمقارن، ويتألف — بعد المقدمة وتمهيد في تحرير مصطلحات العنوان — من محورين رئيسين متكاملين: المحور الأول نظري تشخيصي يُؤسس الإطار النظري ببيان تطور البلاغة وأبعادها الحاجية والتداولية والوجدانية، ثم يُشرّح الفجوة البلاغية في مؤسسات التعليم الشرعي العالي على مستوياتها المنهجية والتأهيلية والمؤسسية والثقافية والتكنولوجية، ويستقرئ أبرز النماذج البلاغية المرجعية في التراث؛ والمحور الثاني تطبيقي إصلاحي يُعالج القضايا المجتمعية المعاصرة الكبرى كازمة الهوية في الفضاء الرقمي والتطرف الفكري وقضايا الأسرة وأسئلة الذكاء الاصطناعي، ثم يُقدّم رؤيةً إصلاحيةً استراتيجيةً متكاملةً على المستويات المنهجية والتأهيلية والمؤسسية والرقمية. وقد خلص البحث إلى جملة نتائج أبرزها: أن المؤسسة الشرعية الأكاديمية تعاني فجوةً بلاغيةً حقيقيةً متعددة الأبعاد بين إنتاجها العلمي الرصين وما تستدعيه الحاجة الاجتماعية، وأن إصلاحها يستلزم تحولاً منهجياً شاملاً.

الكلمات المفتاحية: بلاغة شرعية، خطاب ديني مؤسسي، حجاج لغوي، تداولية، إصلاح خطابي.

المقدمة:

الحمدُ لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسانَ ما لم يعلم، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فإن الخطاب الشرعي في مؤسسات التعليم العالي يمثل الجسرَ الأساسي بين العلوم الإسلامية في صورتها الأكاديمية الراسخة وبين المجتمع في حاجاته اليومية المتجددة. غير أن واقع هذا الجسر اليوم ينطوي على مفارقة لافتة تستوقف الباحث: فبينما يبلغ الإنتاج العلمي الشرعي في الجامعات والمعاهد المتخصصة درجاتٍ عاليةً من الدقة المنهجية والرصانة الاصطلاحية، يظل أثره الاجتماعي محدوداً، وحضوره في الفضاء العمومي ضعيفاً،

وقائع المؤتمر الدولي الرابع (التعليم العالي وقضايا المجتمع المعاصر) ٢٠٢٦/٥/٧-٦

وقدرته على معالجة قضايا الشباب والأسرة والهوية والمستجدات التقنية أقل بكثير مما تستلزمه الحاجة وتقتضيه الرسالة.

ولا يكاد المتأمل في هذه المفارقة يجد لها تفسيراً مقنعاً في ضعف المضمون العلمي ذاته — فالتراث الشرعي والإنتاج الأكاديمي المعاصر كلاهما غني — بل يجدها متعلقةً بشيء آخر يقع في طبقة وسطى بين النص ومتلقيه، هو طبقة البلاغة والتبليغ والصياغة الخطابية. وهذه الملاحظة الأولية هي التي تبرر طرح هذا البحث وتوسّع منهجه.

إشكالية البحث:

تتعلق إشكالية هذا البحث من ملاحظة منهجية جوهرية مفادها: أن أزمة الخطاب الشرعي الأكاديمي المعاصر ليست في صميمها أزمة مضمونٍ علمي أو رصيد معرفي — فالموروث الفقهي والأصولي والتفسيري بالغ الثراء — بل هي أزمة بلاغية في الدرجة الأولى؛ أزمة صياغةٍ وتبليغ، وأزمة مراعاةٍ للمقام والمتلقي، وأزمة توظيفٍ للأدوات الخطابية في إيصال الحق وإحداث الأثر. ومن ثمَّ فإنَّ إشكالية هذا البحث تتمحور حول السؤال المركزي الآتي: كيف يمكن لبلاغة الخطاب الشرعي في مؤسسات التعليم العالي أن تُسهم في معالجة القضايا المجتمعية المعاصرة، وتضطلع بوظيفتها التوجيهية والتشكيلية في الواقع، في ظل الفجوة القائمة بين إنتاجها الأكاديمي وحاجات المتلقي المعاصر؟

ويتفرّع عن هذا السؤال المركزي جملةً من الأسئلة الفرعية التي يسعى البحث إلى الإجابة عنها، وهي

• ما طبيعة العلاقة البنوية بين البلاغة والخطاب الشرعي: أي علاقة إضافية وتزيين، أم علاقة تأسيس

وجوهر؟

• ما مظاهر الضعف البلاغي في الخطاب الشرعي الأكاديمي المعاصر، وما جذوره المنهجية والمؤسسية

والتأهيلية والثقافية؟

• ما النماذج البلاغية في التراث الإسلامي التي تثبت إمكانية الجمع بين الرصانة العلمية والفاعلية الخطابية؟

• ما القضايا المجتمعية المعاصرة التي تستلزم خطاباً شرعياً بليغاً، وما طبيعة الاستجابة المطلوبة فيها؟

• ما الرؤية الإصلاحية الممكنة لتجسير الهوة بين الخطاب الشرعي الأكاديمي وجمهوره على المستويات

المنهجية والتأهيلية والمؤسسية؟

فرضية البحث:

ينطلق البحث من فرضية مركزية مفادها أن الفجوة بين الخطاب الشرعي الأكاديمي ومنتقيه المعاصر فجوةً بلاغيةً في جوهرها، وأن سدّها لا يتم بمراجعة المضمون العلمي بل بإعادة الاعتبار للبعد البلاغي بوصفه شرطاً لازماً في فاعلية الخطاب الشرعي ومُحقّقاً لمقاصده — لا تحسباً ثانوياً عليه. ويتفرع عن هذه الفرضية الكبرى فرضيتان فرعيتان: الأولى أن التراث البلاغي الإسلامي يمتلك من الأدوات النظرية ما يسمح ببناء نظرية تطبيقية معاصرة تستوعب مستجدات القرن الحادي والعشرين، والثانية أن الإصلاح الخطابي لا يتحقق بالمعالجات الجزئية بل يستلزم استراتيجية متكاملة تعمل على المستويات المنهجية والتأهيلية والمؤسسية في آنٍ واحد.

أهمية البحث ومسوغاته:

تنبثق أهمية هذا البحث من منطلقين متكاملين: الأول نظري علمي، يتمثل في تأسيس حقل معرفي بيني يجمع بين علوم البلاغة العربية الكلاسيكية وأصول الفقه من جهة، وبين نظريات الحجاج اللغوي والتداولية المعاصرة من جهة أخرى. وقد نبّه فضل حسن عباس إلى أن الدارس للشريعة لا يُتَمُّ فقاهاته حتى يُتقن لسانه ويُحكم أسلوبه، إذ لا استنباط سديد دون فهم بلاغي عميق للنص (عباس، ٢٠٠٧: ٧).

والمنطلق الثاني اجتماعي تطبيقي، يتمثل في التصدي لعواقب الضعف الخطابي الشرعي على الواقع: من تنامي التطرف الذي يملأ الفراغ الذي يتركه الخطاب الرصين، إلى ترسُّخ الانقسام الهوياتي لدى الشباب المسلم. ومما يُعزّز أهمية البحث أن نقده للخطاب الشرعي ينطلق من الداخل — من منطلق الحرص عليه ومرجعيته، لا التشكيك في أصولها — وهو منهج يُوافق توجيهات الريسوني في ضرورة النقد الذاتي الداخلي (الريسوني، ٢٠٠٠: ٨٩).

منهج البحث:

يعتمد البحث ثلاثة مناهج متكاملة تتلاءم مع طبيعة الإشكالية المطروحة: المنهج الوصفي التحليلي لرصد الواقع البلاغي للخطاب الشرعي الأكاديمي ومظاهره وملامحه، والمنهج الاستقرائي النقدي للنفاد إلى جذور الضعف البلاغي وتشخيص أسبابه المنهجية والمؤسسية، والمنهج المقارن للموازنة بين النماذج التراثية البلاغية الناجحة والنماذج الأكاديمية المعاصرة من جهة، وبين الأطر النظرية الكلاسيكية والمعاصرة من جهة أخرى.

خطة البحث:

تتوزع خطة البحث — بعد هذه المقدمة وتمهيد يُحرَّر فيه مصطلحات العنوان — على محورين رئيسيين متكاملين، يعقبهما خاتمة بأبرز النتائج والتوصيات.

المحور الأول: الإطار النظري والتشخيصي للخطاب الشرعي وبلاغته. ويُعنى ببناء الأساس المفاهيمي للبحث وتحرير المصطلحات المركزية، ثم تشخيص الفجوة البلاغية في التعليم الشرعي العالي ورصد جذورها على مستوياتها المختلفة، واستقراء أبرز النماذج البلاغية في التراث الإسلامي التي تُمثِّل الأفق الذي تستهدفه الرؤية الإصلاحية.

المحور الثاني: الإطار التطبيقي والإصلاحي — قضايا الواقع ورؤية التجديد. ويُعنى بتنزيل الإطار النظري على الواقع، فيتناول القضايا المجتمعية المعاصرة التي تستلزم خطاباً شرعياً بليغاً، ثم يُقدِّم رؤيةً إصلاحيةً متكاملةً على المستويات المنهجية والتأهيلية والمؤسسية والرقمية، تُجيب عن السؤال المركزي للبحث وتُترجم نتائجه إلى توصيات عملية.

الدراسات السابقة وموضع هذا البحث:

يمكن تصنيف ما أنجزه الباحثون في هذا المجال في ثلاث مجموعات رئيسية: المجموعة الأولى الدراسات البلاغية التحليلية كدراسات شكري عياد (١٩٨٢) وفضل حسن عباس (٢٠٠٢) ومحمد أبو موسى — وهي دراسات ثرية منهجياً غير أنها تقتصر على التحليل النصي ولا تتصل بالبُعد التعليمي المؤسسي. والمجموعة الثانية الدراسات النقدية في الخطاب الديني المعاصر كما عند طه عبد الرحمن (٢٠٠٦) وأحمد الريسوني (٢٠٠٠) — وهي تعالج المضمون الفقهي دون إيلاء البنية البلاغية الاهتمام الكافي. والمجموعة الثالثة الدراسات الحجاجية والتداولية كدراسة إدريس خلوص (٢٠٠١) وعلي حبيبة (٢٠٠٨) — وهي الأقرب إلى منهج هذا البحث، غير أنها تقف عند التحليل ولا تُقدِّم تصوراً إصلاحياً تربوياً مؤسسياً. ومن هنا يأتي هذا البحث ليملاً فراغاً منهجياً بالجمع بين البلاغة التطبيقية والخطاب الشرعي المؤسسي وإشكاليات المجتمع المعاصر في إطار محورين متكاملين.

التمهيد: تحرير مصطلحات عنوان البحث

جرت العادة في البحوث الأكاديمية المنضبطة بمناهج الدراسات الإسلامية والإنسانية أن يُفرد للتعريف بمصطلحات عنوان البحث تمهيداً مستقلاً يلي المقدمة ويسبق صلب البحث؛ إذ بيان

المصطلحات في موضعها هذا شرطٌ منهجيٌّ في ضبط الدلالة، وقطع الطريق على الاحتمالات المتعددة، وتوحيد الفهم بين الباحث والقارئ. وقد قرّر الجرجاني أن «اللفظُ المُجمل لا تستقيم به حجةٌ ولا يَنبني عليه استدلال» (الجرجاني، ١٩٩٢: ٧١)؛ ولذلك يَعمد الباحث إلى تحرير المصطلحات قبل تنزيلها على الواقع المدروس. ويتضمن عنوان هذا البحث «بلاغةُ الخطابِ الشرعيّ في التعليمِ العالي ودورها في معالجةِ قضايا المجتمع المعاصر» أربعةَ مصطلحات مفتاحية تستلزم التحرير، وفيما يلي بيانها.

أولاً: مصطلح البلاغة

البلاغة في اللغة مأخوذة من الفعل «بَلَّغَ»، بمعنى الوصول إلى المقصد والانتهاء إلى الغاية. قال ابن فارس: «الباء واللام والغين أصلٌ صحيح يدل على الوصول إلى الشيء والانتهاء إليه» (ابن فارس، ١٩٧٩: ٣٠١). ومنه قول العرب: «بلغ الرجلُ بلاغةً، فهو بليغ»، إذا انتهى في الفصاحة إلى غاية لا تُعجزُ سامعه عن الفهم (ابن منظور، ١٩٩٤، مادة «بلغ»). ففي الأصل اللغوي إشارةٌ دالةٌ: البلاغة وظيفةٌ إيصاليةٌ قبل أن تكون صناعةً تحسينيةً.

وأما في الاصطلاح، فقد تعددت تعريفات البلاغيين لها بحسب الزاوية المنظور منها. فعرفها الجاحظ تعريفاً وظيفياً واسعاً يربطها بمقتضى المقام، فقال إن البلاغة «معرفةُ الفصل من الوصل، ومعرفةُ مواضع القطع وأطراف الكلام» (الجاحظ، ١٩٩٨، ج ١: ٨٨)، وجعلها رهينةً التلاؤم بين قصد المتكلم وقدرة المتلقي. ثم جاء عبد القاهر الجرجاني فأرسى مفهوماً أعمق للبلاغة بنظريته في «النظم»، التي ترى أن جوهر البلاغة في «توحيّ معاني النحو فيما بين معاني الكلم» (الجرجاني، ١٩٩٢: ٨٢)؛ أي في علاقة المعاني بعضها ببعض في ذهن المتكلم قبل ترتيب الألفاظ على اللسان. أما السكاكي فقد رسم لها حدوداً تعليميةً منقررةً فقال: «البلاغةُ بلوغُ المتكلم في تأدية المعاني حدّاً له اختصاصٌ بتوفية خواص التراكيب حقّها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها» (السكاكي، ١٩٨٧: ٤١٦)، وعنه أخذ القزويني تعريفه المشهور بأن البلاغة «مطابقةُ الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته» (القزويني، ٢٠٠٣: ١٤).

ويرى الباحث أن التعريف الأنسب لمقصود هذا البحث هو ما يجمع بين البُعد الوظيفي عند الجاحظ والبُعد البنوي عند الجرجاني والبُعد المقامي عند القزويني؛ فالبلاغة في هذا البحث تعني: الكفاءة الخطابية التي يبلغ بها المتكلم مقصده إلى المتلقي بأقصر طريق وأعمق أثر، عبر مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وإحكام نظمه الدلالي، وحسن توظيف أدواته الحجاجية والتداولية والجمالية.

وهذا التعريف يتجاوز التصور الكلاسيكي الذي يحصر البلاغة في علوم المعاني والبيان والبديع، إلى تصور تطبيقي وظيفي يُلائم سياق الدراسات الخطابية المعاصرة، ويُحاور ما أنجزته نظريات الحجاج والتداولية في القرن العشرين.

ثانياً: مصطلح الخطاب الشرعي

الخطاب في اللغة من «حَطَبَ»، وهو «الكلام بين متكلم وسماع» (ابن منظور، ١٩٩٤، مادة «خطب»). وأما في الاصطلاح فقد عرّفه الأصوليون تعريفاً دقيقاً، فقال الأمدى: «الخطابُ هو اللفظُ المتواضع عليه المقصودُ به إفهامُ من هو متهيئٌ لفهمه». وفي الدراسات الخطابية الحديثة وسّع فان دايك مفهوم الخطاب ليشمل

«كل ممارسة لغوية ترتبط بسياق اجتماعي ومؤسسي محدد، تُنتج فيه السلطة والمعرفة معاً» (Van Dijk 2008: 29)؛ فالخطاب عنده ليس مجرد نص لغوي، بل هو ممارسة اجتماعية تصدر عن مؤسسة وتُنتج أثراً اجتماعياً.

وأما لفظ «الشرعي» فهو نسبة إلى «الشرعية»، وهي «ما شرع الله لعباده من الدين» (الزحيلي، ١٩٩٧، ج ١: ١٦). وقد ميّز الأصوليون بين أنواع للخطاب الشرعي بحسب وظيفته: فالشاطبي يُفرّق بين الخطاب التكليفي المتعلق بالأفعال من الإيجاب والندب والإباحة والكرهية والتحريم، والخطاب الوضعي المتعلق بالأسباب والشروط والموانع والصحة والفساد (الشاطبي، ١٩٩٧، ج ١: ٤٤). ولكلّ من هذين النوعين اقتضاءاته البلاغية الخاصة، وأساليبُ تبليغها التي تتفاوت بحسب طبيعة الحكم ومقام المخاطب.

ويُعرّف الباحث «الخطاب الشرعي» في سياق هذا البحث بأنه: كلُّ ممارسةٍ تواصليةٍ يُنتجها العالم أو المؤسسة العلمية الدينية، اعتماداً على المرجعية الإسلامية في أصولها ومقاصدها، بقصد بيان الحكم الشرعي أو توجيه السلوك الفردي أو المجتمعي وفق هذه المرجعية. وتشمل هذه الممارسة الإنتاج المكتوب من بحوث ومقالات وفتاوى، والإنتاج الشفهي من خطب ومحاضرات ودروس، والإنتاج الرقمي من محتوى مرئي ومسموع وتفاعلي. ويُحتز بقيد «العالم أو المؤسسة العلمية» عن الخطابات الشعبية والدعوية غير المنضبطة بالمنهج العلمي، وإن كانت تتقاطع معها في بعض المواضع.

ثالثاً: مصطلح التعليم العالي:

التعليم في اللغة من «عَلَّمَ»، أي جعل غيره يعلم، وهو «إيقاعُ العلم في النفس» (الجرجاني، التعريفات). وأما «التعليم العالي» فهو مصطلحٌ مؤسسيٌّ معاصرٌ يُطلق على «المرحلة التعليمية التي تلي المرحلة الثانوية، وتُقدّم في الجامعات والكليات والمعاهد المتخصصة، وتُمنح فيها الشهادات الجامعية الأولى ثم الدراسات العليا» (منظمة التعاون الإسلامي/إيسيسكو، ٢٠١٩: ١٢). ويتميز هذا التعليم بثلاثة خصائص أساسية: التخصص الدقيق في حقل معرفي محدد، والمنهجية البحثية المنضبطة، والإسهام في إنتاج المعرفة لا تلقّيها فحسب.

ويُقصد في هذا البحث بالتعليم العالي الشرعي على وجه التحديد: مؤسسات التعليم الجامعي المتخصصة في العلوم الإسلامية بفروعها — من فقه وأصول وتفسير وحديث وعقيدة ودعوة — سواءً كانت كليات شرعيةً مستقلةً (كالأزهر الشريف وجامعة الإمام محمد بن سعود وجامعة المدينة العالمية)، أو أقساماً شرعيةً ضمن جامعاتٍ شاملة (كأقسام الدراسات الإسلامية في الجامعات الحكومية والأهلية في العالم العربي والإسلامي). وتشمل هذه المؤسسات مرحلتَي البكالوريوس والدراسات العليا، وما يصدر عنها من إنتاج علمي وخطابي يستهدف الجمهور العام أو الخاص.

رابعاً: مصطلح قضايا المجتمع المعاصر

القضية في اللغة من «قضى»، وهي «الحكمُ والفصل والإحكام» (ابن فارس، ١٩٧٩، مادة «قضى»). وفي الاصطلاح المنطقي تُطلق على «القولِ المحتمل للصدق والكذب». وأما في الاستعمال المعاصر في حقل العلوم الاجتماعية فتُطلق «القضية» على «المسألة العامة التي تشغل بال المجتمع، وتستلزم نظراً ومعالجةً، وتتشعب فيها وجهات النظر» (الجابري، ٢٠٠٩: ١٨). وأما «المجتمع» فهو «جماعةُ الناس المتعايشين في رقعة جغرافية محددة، تربطهم روابط مشتركة من الثقافة واللغة والتاريخ والمصالح» (القرضاوي، ١٩٨٩: ١٤٢).

ويُقصد في هذا البحث بقضايا المجتمع المعاصر: المسائل الكبرى التي تشغل المجتمع المسلم في الزمن الراهن، وتمسُّ هويته الدينية والثقافية والاجتماعية، وتستلزم خطاباً شرعياً يُوَجِّه ويُؤطّر ويُعالج. وقد حصر الباحث هذه القضايا في هذا البحث في أربع مجموعات رئيسية، تمثل أكثر القضايا إلحاحاً وأكثرها تأثيراً في الواقع المعاصر:

• أزمة الهوية في زمن الانكشاف الرقمي: وما تستلزمه من خطاب يُؤسِّس الانتماء على البرهان

لا على الإلزام.

• التطرف الفكري الديني: وما يستلزمه من خطابٍ مضادٍ لا يقل بلاغةً عن خطاب التطرف، بل يتفوق عليه

لأنه يحمل الحق.

• قضايا الأسرة والهندسة الاجتماعية المعاصرة: وما تستلزمه من خطابٍ إيجابيٍ يقدّم النموذج الإسلامي من

داخل منظومته الذاتية لا اعتذاراً عنها.

• أسئلة الذكاء الاصطناعي والثورة التقنية: وما تستلزمه من فقه مستجداتٍ بليغٍ يُجيب عن أسئلة الإنسان

الوجودية في عصر الآلة.

ولفظ «المعاصر» في عنوان البحث يحمل دلالةً زمنيةً ودلالةً مفهوميةً معاً: فالدلالة الزمنية تشير إلى الحقبة التي يعيشها المسلمون اليوم، والممتدة منذ منتصف القرن العشرين إلى الراهن، أما الدلالة المفهومية فتشير إلى الواقع الذي تتشكّل فيه هذه القضايا تحت تأثير العولمة والتحول الرقمي والتغير القيمي السريع.

خامساً: العلاقة الموضوعية بين مصطلحات العنوان

لا يقتصر تحرير المصطلحات على بيانها فرادى، بل يستلزم بيان العلاقة الموضوعية التي تربطها. فعنوان البحث «بلاغةُ الخطابِ الشرعيّ في التعليمِ العالي ودورها في معالجة قضايا المجتمع المعاصر» ينطوي على بنية موضوعية مركّبة تجمع بين أربعة عناصر متكاملة: العنصر الأول هو الأداة المعرفية المنهجية (البلاغة)، والثاني هو الموضوع المتأثرّ بهذه الأداة (الخطاب الشرعي)، والثالث هو الفضاء المؤسسي الذي يُنتج فيه هذا الخطاب (التعليم العالي)، والرابع هو الميدانُ التطبيقيُّ المستهدفُ بالأثر (قضايا المجتمع المعاصر).

ومن ثمّ فإنّ البحث في هذه العلاقات الأربعة يُجيب عن سؤال مركزي: كيف تنتقل البلاغة بوصفها أداةً منهجيةً، عبر الخطاب الشرعي بوصفه ممارسةً تواصليةً، من فضاء المؤسسة الأكاديمية بوصفه موطنَ الإنتاج، إلى ميدان قضايا المجتمع بوصفه ميدان الأثر؟ وهذا السؤال هو الذي يُوجّه فصول البحث ومحوريه ويربط بينهما برباط منهجي محكم.

المحور الأول: الإطار النظري والتشخيصي للخطاب الشرعي وبلاغته

يُؤسّس هذا المحور للبحث على المستوى النظري، فيحرّر المفاهيم المركزية، ويُشرّح الواقع البلاغي للخطاب الشرعي الأكاديمي، ويستجلي جذور الفجوة البلاغية على مستوياتها المتعددة، ثم يستقرئ أبرز النماذج البلاغية في التراث الإسلامي التي تُمثّل الأفق المرجعي للرؤية الإصلاحية. ويتوزع هذا المحور على أربعة مباحث متكاملة.

المبحث الأول: الإطار النظري — تطور البلاغة وأبعادها في الخطاب الشرعي

بعد أن حُرّرت مصطلحات العنوان في التمهيد، يأتي هذا المبحث ليبيّن الإطار النظري المعمق للبحث، فيعرض تطور مفهوم البلاغة عبر مراحلها الكبرى في التراث الإسلامي، ثم يُحرّر العلاقة البنيوية بين البلاغة والخطاب الشرعي على المستوى الأصولي، ثم يستجلي أبعاد البلاغة الثلاثة — الحجاجي والتداولي والوجداني — في الخطاب الشرعي المعاصر، مُحاوراً بين التراث البلاغي الإسلامي ونظريات التواصل الحديثة.

أولاً: تطور البلاغة عبر مراحلها الكبرى

تطور مفهوم البلاغة في التراث الإسلامي عبر مراحل متعاقبة شكّلت في مجموعها بناءً نظرياً متكاملاً يصل بين الأصل اللغوي والوظيفة التواصلية. ففي مرحلة التأسيس وسّع الجاحظ نطاق البلاغة لتشمل كل أشكال التواصل الاجتماعي بما فيها الصمت والإشارة، وجعل فاعليتها رهينة التلاؤم الكامل بين ما يريد المتكلم قوله وما يستطيع المتلقي استيعابه (الجاحظ، ١٩٩٨، ج ١: ٧٥). ثم جاء عبد القاهر الجرجاني ليؤسّس النقلة النوعية الكبرى بنظريته في «النظم»، التي تتجاوز التصنيف التقليدي للأساليب إلى مفهوم أعمق هو علاقة المعاني بعضها ببعض في ذهن المتكلم قبل ترتيب الألفاظ على اللسان (الجرجاني، ١٩٩٢: ٨٢).

«اعلم أنه ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيغ عنها... وإذا رجعت إلى نفسك علمت أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يُعلّق بعضها ببعض» (الجرجاني، ١٩٩٢: ٨٢) ويرى عبد العزيز حمودة أن هذا الفهم الجرجاني للبلاغة سبق ما وصلت إليه الأسلوبية الغربية الحديثة بنحو ثمانية قرون، حين أدرك الأسلوبيون أن الأسلوب ليس تحسيناً مضافاً إلى المعنى من خارج بل هو طريقة وجود المعنى في النص ذاته (حمودة، ١٩٩٨: ٦١). ثم جاءت مرحلة التقنين عند السكاكي والقرويني، حيث استقرت البلاغة في علومها الثلاثة المعروفة (المعاني والبيان والبديع)، وكسبت بذلك انضباطاً

تعليمياً عظيماً، وإن دفع هذا التقنين بعض البلاغة إلى التصنيف الجامد الذي أبعدها لاحقاً عن وظيفتها الإيصالية الحية.

ثانياً: العلاقة البنيوية بين البلاغة والخطاب الشرعي

العلاقة بين البلاغة والشريعة ليست علاقة إضافة واختيار بل علاقة اشتراط وضرورة. وقد نبّه الشاطبي إلى بُعد جوهرى في طبيعة الخطاب الشرعي كثيراً ما يُغفل، حيث قرّر أن فهم هذا الخطاب مشروطٌ بفهم أحوال المخاطبين وأعرافهم وثقافتهم الخاصة (الشاطبي، ١٩٩٧، ج ٢: ٨٠).

«الشريعة عربية، والخطاب بها على مقتضى لسان العرب، فلا يُصح فهمها إلا بفهم ما وقعت به الخطاب من أحوال المخاطبين وأعرافهم وعاداتهم فمن لم يُراعِ أحوال المخاطبين فقد أغفل ركناً أساسياً في فهم الخطاب». (الشاطبي، ١٩٩٧، ج ٢: ٨٠-٨٢).

وهذا التقرير الشاطبي البديع يُوازي ما أرساه غرايس لاحقاً في مبدأ «الاستلزام الحواري» من أن الكلام لا يُفهم إلا في سياقه الاجتماعي والثقافي (Grice, 1989: 24)، وإن عبّر العالمان عن الحقيقة ذاتها بمصطلحات تعكس خلفيتين معرفيتين متباعدتين زمانياً ومكانياً. وقد جسّد الخطاب النبوي هذا التلازم خير تجسيد: فقد وصف ابن القيم كيف كان النبي ﷺ يُنوع في أسلوبه بحسب طبيعة المخاطب وسياق الموقف بما يُثبت أن البلاغة لم تكن في السنة النبوية كمالاً مضافاً بل كانت جزءاً من منهج التبليغ ذاته (ابن القيم، ١٩٩٤، ج ١: ١٦٢).

ثالثاً: أبعاد البلاغة في الخطاب الشرعي المعاصر

تتجلى أبعاد البلاغة في الخطاب الشرعي المعاصر في ثلاثة أبعاد متكاملة: البُعد الحجاجي الذي يُعنى بإقناع العقل بالدليل الناضج، وقد أرسى بيرلمان وتيتيكا في «البلاغة الجديدة» نظريةً في الحجاج تقوم على التمييز بين الجمهور الكوني الذي تُلزمه الحجة المنطقية المطلقة، والجمهور الخاص الذي تُخاطبه الحجة الانتقائية الملائمة (Perelman & Olbrechts-Tyteca, 1969: 19-26). وهذا التمييز يُوازي تقرياق الأصوليين بين الدليل القطعي والدليل الظني، مما يعني أن التراث الأصولي قدّم نظريةً في درجات الإلزام الحجاجي سابقةً بأجيال. والبُعد الثاني تداولي يُعنى بفقه المقام الخطابى، تدرس فيه التداولية العلاقة بين الأقوال ومستعملها في سياقاتها الفعلية، وأبرز ما تُعيدده الخطاب الشرعي ثلاثة مبادئ: مبدأ الاستلزام الحواري لغرايس، ومبدأ أفعال

الكلام لأوستن وسيرل ، ومبدأ الوجه التأديبي للبيتش ، وقد سبق الأصوليون إلى الاهتمام بهذه الأبعاد في مباحث «دلالة الإشارة» و«مفهوم المخالفة» و«الاستلزام».

والبُعد الثالث وجداني جمالي، يرى فيه ابن القيم أن «للحسن قوةً على القلوب تفوق قوة الحجة المجردة في بعض المقامات» (ابن القيم، ١٤٢٥هـ، ج ٣: ٦٩٣). وهذه الحقيقة أكَّدها علم النفس المعرفي الحديث حين أثبت كانيمان أن المعالجة الوجدانية للمعلومات تسبق المعالجة التحليلية وتُهيئ لها (Kahneman, 2011: 59-72) فالكلام الجميل يفتح أبواب القلب قبل أن تُكمل الحجة اقتحام العقل — وهذا ليس تنازلاً عن العقل بل هو الاستثمار الأمثل لطبيعة الإنسان كما قرَّرها التراث وأثبتها العلم.

المبحث الثاني: تشخيص الواقع — الفجوة البلاغية في التعليم الشرعي

أولاً: المشهد المؤسسي والدلالة الرقمية

رصد تقرير منظمة إيسيسكو أن الشباب الذين يُشرون إلى مؤسسات التعليم الديني الأكاديمي بوصفها مصدرهم الأول للمعرفة الشرعية لا تتجاوز نسبتهم ٢٣٪، في حين تبلغ النسبة المقابلة للفضاء الرقمي ٦١٪ (منظمة التعاون الإسلامي/إيسيسكو، ٢٠١٩: ٧٨). ويكشف هذا الفارق عن فجوة تواصلية حقيقية لا يمكن تفسيرها بمجرد التنافس التقني، بل يجب قراءتها بوصفها أزمة بلاغية بالدرجة الأولى.

وقد لفت هذا المأزق عددً من الباحثين؛ فالفيلسوف طه عبد الرحمن يُشخص الخطاب الديني المعاصر بأنه واقع في شَرَك معضلة مزدوجة: يُحكم الصياغة للخاصة فيُنْفَر المتطلِّعين إلى الفهم، ويُهَوِّن في الأسلوب للعامة فيُفقر المعنى ويذهب أثره، وكلتا الحالتين دليل على غياب الوعي البلاغي الراسخ (طه عبد الرحمن، ٢٠٠٦: ٤٧).

ثانياً: مظاهر الضعف البلاغي

أ — الإطناب المُضِر وداء الحشو الأكاديمي: يُشكِّل الإطناب غير المقصود أحد أبرز عيوب الخطاب الشرعي الأكاديمي. والإطناب في ذاته ليس عيباً مطلقاً — فالجرجاني وصف وجوهاً محمودة منه كالتذييل والتكميل والإيضاح (الجرجاني، ١٩٩٢: ١٥٤). لكن الذي يلاحظ هو نمط مختلف: إطناب يعكس غياب الانضباط الفكري — مقدمات مطوّلة لا تُضيف إلى المتن شيئاً، وإعادة صياغة لما سبق تقريره، وتوسُّع في الفروع على حساب التعمق في الأصول. وقد رصد حمودة ما يُسميه «التطويل الدفاعي» في الكتابة الأكاديمية العربية (حمودة، ١٩٩٨: ٧٩).

ب — الانغلاق الاصطلاحي والعجز عن التجسير: حين يُكتَب في موضوع «الاستصلاح» أو «الذرائع» أو «مآلات الأفعال»، يجد القارئ غير المتخصص نفسه أمام تعريفات تقترض مسبقاً إماماً بمصطلحات أصولية أخرى. والمطلوب ليس الاستغناء عن الدقة الاصطلاحية — وهي ضرورة لا تنازل عنها — بل توظيف ما يُسميه متخصصو التواصل العلمي «استراتيجية التجسير» بين المصطلح التخصصي ومخزون المفاهيم المتاح عند المتلقي العادي (Fairclough, 1992: 78).

ج — ضعف التوظيف السردى والتصويرى: يقول ابن القيم في «إعلام الموقعين» إن ضرب الأمثال من أعلى أساليب البيان وأنفعها في تقريب المعاني وتجسيدها (ابن القيم، ١٩٧٣، ج ١: ٨٧). وغياب التوظيف السردى في الخطاب الشرعى الأكاديمي ليس قصوراً أسلوبياً فحسب بل هو مخالفة صريحة لمنهج التراث البلاغى الشرعى ذاته. وتؤكد أبحاث علم النفس المعرفى أن المعالجة السردية للمعلومات تُرسخ المعنى في الذاكرة البعيدة المدى بصورة أعمق من المعالجة التقريرية الجافة. (Kahneman, 2011: 64)

د — إغفال مقتضى الحال والقصور التداولى: الخطاب الشرعى الأكاديمي في معظمه يُنتج بمعزل عن الواقع الاجتماعى والنفسى للمتلقى المستهدف. وقد كرس الشاطبى مبدأ «مراعاة مقتضى الحال» ركناً أساسياً في فهم النص الشرعى وتنزيله على الواقع (الشاطبى، ١٩٩٧، ج ٢: ٨٠)، وهو ما يُوازي ما أرساه غرايس لاحقاً من أن الكلام الذى لا يُراعى السياق يُخفق في وظيفته التواصلية مهما بلغت صحته المنطقية. (Grice, 1989: 26)

ثالثاً: الجذور المتعددة المستويات للفجوة البلاغية

لا يكفي تشخيص الضعف البلاغى دون الغوص في جذوره الحقيقية، التي تنتشعب بين مستويات منهجية وتأهيلية ومؤسسية وثقافية وتكنولوجية متداخلة. ويقول فيركلو إن الخطاب لا يتغير إلا بتغيير البنى المؤسسية والممارسات الاجتماعية التي تُنتجها. (Fairclough, 1992: 64)

١. الأزمة المنهجية: تتمثل أعمق المعوّقات في تصميم المناهج ذاتها، فعلم البلاغة تُدرّس في معظم الكليات الشرعية بوصفها مادةً تاريخيةً تعريفيةً لا أداةً حيةً للتواصل. وقد رصد العبيسي أن أكثر من ٨٠٪ من مقررات البلاغة في الكليات الشرعية تكتفي بالجانب التعريفى وتُهمل الجانب الإنتاجى إهمالاً شبه تام (العبيسي، ٢٠١٧: ٥٥-٥٨). ويُضاف إلى ذلك غياب التكامل المنهجى

وقائع المؤتمر الدولي الرابع (التعليم العالي وقضايا المجتمع المعاصر) ٦-٧/٥/٢٠٢٦

بين علوم البلاغة والعلوم الشرعية، فيخرج الطالب وفي ذهنه تعريف الجرجاني للبلاغة وفي أسلوبه الخطابى لا أثر لها (الريسونى، ٢٠٠٠: ٩١).

٢. **الأزمة التأهيلية:** لا يمكن للطالب أن يكتسب كفاءةً خطابيةً من أستاذ يفترق إلى هذه الكفاءة بدوره. وتؤكد إيسيسكو أن أقل من ٢٠٪ من أعضاء هيئة التدريس في الكليات الشرعية العربية تلقوا أي تدريب رسمي في مهارات التواصل الأكاديمي أو فن الإلقاء (منظمة التعاون الإسلامي/إيسيسكو، ٢٠١٩: ٧٨-٨٢). وتمتد هذه الأزمة إلى برامج الماجستير والدكتوراه التي تُركّز على البحث التخصصي الضيق وتُهمل بناء الشخصية الخطابية للباحث (طه عبد الرحمن، ٢٠٠٠: ٢٩).

٣. **الأزمة المؤسسية:** تعمل المؤسسة الأكاديمية الشرعية وفق منظومة حوافز تُكافئ النشر في المجالات المحكّمة وتُهمل التقييم النوعي للأثر الاجتماعي والتواصل. فيجد الأكاديمي نفسه في معادلة صعبة: الكتابة للجمهور العام تُقلل من تخصصه في نظر مؤسسته، بينما الانكفاء على الكتابة المتخصصة يُضمن ترقيته ويُبعده عن جمهوره الفعلي. (Fairclough, 1992: 39)

٥. **الأزمة الثقافية:** ثمة عائق ثقافي يتمثل في سيادة تصور ضمني مفاده أن التجديد البلاغي ضرب من التساهل والمداهنة، وأن الأسلوب القديم الجاف دليل على الرصانة وصون الهوية العلمية. وهذا التصور يُغفل حقيقة راسخة في التراث: وهي أن أئمة العلم لم يكونوا يعدّون الجمال البياني تنازلاً عن الصرامة العلمية (طه عبد الرحمن، ٢٠٠٦: ٥٣).

٥. **الأزمة التكنولوجية:** أضافت الثورة التكنولوجية بُعداً جديداً لأزمة الخطاب الشرعي؛ إذ يقول كريستال إن الفضاء الرقمي لم يكتفِ بخلق منصات تواصلية جديدة بل أعاد تشكيل البنية الدلالية للغة ذاتها (Crystal, 2001: 92)، والخطاب الشرعي الذي لا يدرك خصائص الوسيط الرقمي يكتب بلغة القرن الرابع عشر في فضاء القرن الحادي والعشرين.

وما يُلاحظ أن هذه المعوقات ليست مستقلة بل منظومة متكاملة يُغذي بعضها بعضاً في حلقة مفرغة؛ مما يثبت أن الإصلاح الجزئي لن يُجدي، بل لا بد من استراتيجية شاملة تعمل على المستويات جميعاً في آنٍ واحد (طه عبد الرحمن، ٢٠٠٠: ٣٥).

المبحث الثالث: نماذج بلاغية مرجعية في التراث الإسلامي

أولاً: النموذج القرآني — الأفق الذي لا يُبلِّغ

حين يرصد الدارس الأسلوب الخطابي للقرآن الكريم يجد نموذجاً فريداً جمع في آن واحد أعلى درجات الدقة التشريعية وأرقى مستويات الجمال اللغوي والتأثير الوجداني. وقد درس فضل عباس هذا التلازم من زاوية إعجازية وبيّن أن بلاغة القرآن لا تكمن في الألفاظ المفردة بل في النظام الكلي الذي تُنتج فيه المعاني علاقاتها بعضها ببعض (عباس، ٢٠٠٢: ١٤٧-١٨٠). وتتجلى هذه البلاغة في تنوع الأساليب: فسورة الرحمن تُكرر السؤال الإنكاري توظيفاً محكماً لـ«الاستفزاز الإيجابي» الذي يُشرك المتلقي وجدانياً، وسورة يوسف تُقدّم درساً في الإنسان والبلاء والتمكين عبر سرد يجعل المتلقي يعيش التجربة لا يقرأها من بُعد (الجرجاني، ١٩٩٢: ٢٢٦-٢٢٩)

ثانياً: النموذج النبوي — جوامع الكلم وحكمة التخصيص

وصف الباحثون في الأسلوب النبوي جوامع الكلم بأنها إعجاز خطابي يُكثّف المعنى الكبير في اللفظ القليل — فحديث «لا ضرر ولا ضرار» شكّل قاعدة فقهية كلية يتفرع منها الفقه الإسلامي في مئات المسائل (عباس، ٢٠٠٢: ٢٣٤). ومن الملامح البلاغية البارزة في الخطاب النبوي إتقان التفريد — تصميم الرسالة لكل مخاطب بحسب حاجته الخاصة — وهو ما يُسميه المتخصصون المعاصرون «التخصيص الخطابي» (Van Dijk, 2008: 88).

ثالثاً: نموذج الغزالي وابن القيم — عمق الفقه وجمال البيان

كتب الغزالي «إحياء علوم الدين» بعد أن طاف بالعلوم الشرعية وأحاط بها، ثم أفرغها في قالب أسلوبى متفرد يُخاطب القارئ من الداخل — يُشخّص الدواعي النفسية والعوامل الروحية بدقة طبيب الأرواح ثم يُقدّم الدواء الشرعي في عبارة تُقنع لأنها تصف ما يُحسّه القارئ فعلاً (الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٩: ٣٢٢). أما ابن القيم فقد أعاد في «مدارج السالكين» بناء نص فلسفي صوفي ببنية بلاغية جديدة تُحوّله إلى تجربة روحية يعيشها القارئ بالمتابعة والقياس على نفسه (ابن رجب، ٢٠٠٥، ج ٥: ١٧٠-١٩٢). وما يجمع هذين النموذجين هو وعي تام بأن الخطاب الشرعي وظيفته إحداث أثر في المتلقي — لا مجرد إيصال معلومة (عباس، ٢٠٠٧: ٩).

المحور الثاني: الإطار التطبيقي والإصلاحي — قضايا الواقع ورؤية التجديد

بعد أن أرسى المحور الأول الأساسَ النظري للبحث، وشخصَ الفجوةَ البلاغية في التعليم الشرعي العالي، واستحضر النماذجَ المرجعية في التراث الإسلامي، ينتقل هذا المحور إلى الجانب التطبيقي والإصلاحي. فيتناول أولاً القضايا المجتمعية المعاصرة التي تستلزم خطاباً شرعياً بليغاً، ثم يُقدِّم ثانياً رؤيةً إصلاحيةً متكاملةً على المستويات المنهجية والتأهيلية والمؤسسية والرقمية، تُجيب عن السؤال المركزي للبحث وتُترجم نتائجه إلى توصيات عملية قابلة للتنفيذ.

المبحث الأول: القضايا المجتمعية المعاصرة وحاجتها إلى الخطاب الشرعي البليغ

أولاً: أزمة الهوية في زمن الانكشاف الرقمي

يُلاحظ رمضان أن الجيل المسلم في عصر العولمة الرقمية يحتاج إلى خطاب «يُفسِّح مجالاً للتساؤل دون أن يُقدِّم التساؤل خيانةً للهوية» (Ramadan, 2004: 54). وهذه حاجة لا يُجيب عنها الخطاب التقليدي المبني على الإلزام لا على الاقتناع — ومن ثمَّ فإنَّ بناء خطاب هوية شرعي بليغ يُؤسِّس الانتماء على البرهان لا على العاطفة وحدها بات ضرورةً حضاريةً لا خياراً ثقافياً. وتشير الدراسات إلى أن التنافس الثقافي في الفضاء الرقمي يُسفر عن إشكاليات هوياتية حقيقية لدى الشباب المسلم تستدعي خطاباً يُجيد لغة العصر دون التفریط في أصالة المرجعية (الريسوني، ٢٠٠٠: ١٦٣).

ثانياً: التطرف الفكري — مواجهة الباطل البليغ بالحق الأبلغ

يؤكد كيبيل في دراسته حول التطرف الديني أن التنظيمات المتطرفة أولت الخطاب أهميةً استراتيجيةً قصوى — فهي تُقاتل بالكلمة والصورة والسردية بقدر ما تُقاتل بالسلاح (Kepel, 1985: 25-40). وهذا يعني أن مواجهة هذا الخطاب تستلزم خطاباً مضاداً لا يقل كفاءةً بلاغيةً — بل ينبغي أن يتفوق عليه لأنه يحمل الحق. والمقاربة البلاغية الناجعة لا تكنفي بالنقض والإبطال بل تذهب إلى بناء سردية بديلة تُشبع الحاجة إلى المعنى والانتماء والبطولة. وقد نبه فان دايك إلى أن الخطاب يُستعمل دائماً أداةً في إعادة إنتاج السلطة الاجتماعية وتشكيل الهويات الجماعية (Van Dijk, 2008: 43).

ثالثاً: قضايا الأسرة والهندسة الاجتماعية المعاصرة

تواجه مؤسسة الأسرة طروحاتٍ تُقدِّم بلغة حقوقية جذابة تستثمر مفردات الكرامة والمساواة. والخطاب الشرعي البليغ في هذا الميدان هو الذي يُقدِّم النموذج الأسري الإسلامي من داخل

منظومته الذاتية الإيجابية لا باعتذاراته — خطابٌ يرى في القيم الإسلامية ثروةً إنسانيةً لا قيماً (الريسوني، ٢٠١١: ٩٢).

رابعاً: الذكاء الاصطناعي وأسئلة الإنسان الوجودية

تُطرح اليوم أسئلة وجودية وأخلاقية بالغة العمق تنبثق من الثورة التقنية: ما معنى الإنسان حين تُحاكيه الآلة؟ وما حدود التصرف في الجسد في ضوء التقنيات الحيوية الجديدة؟ وقد بيّن باحثو فقه المستجدات أن هذه الأسئلة تطرق باب الفقه الإسلامي في صميمه (مجلة فقه المستجدات، ٢٠٢١، ج٣: ١٨). وجمهورٌ يطرح هذه الأسئلة لا يصبر على خطاب يبدأ من التعريفات الكلاسيكية قبل أن يصل إلى جوهر الإشكالية — وهذا تحديداً رهان البلاغة في هذا الميدان.

المبحث الثاني: مقترحات التجديد والإصلاح — رؤية استراتيجية متكاملة

ينبثق هذا المبحث من فناعة منهجية مفادها أن الإصلاح الخطابى الحقيقى فى مؤسسات التعليم الشرعى العالى لا يتحقق بمجرد الإضافة الكمية — كزيادة عدد مقررات البلاغة أو عقد ورش تدريبية عرضية — بل يستلزم إعادة هيكلة نوعية عميقة تُصيب النظام فى بنيته المنهجية والتأهيلية والمؤسسية فى آن واحد. وسيعالج هذا المبحث ستة محاور إصلاحية متكاملة، يكمل بعضها بعضاً ولا يستقيم أحدها دون الآخر.

أولاً: إصلاح المناهج — نحو البلاغة الشرعية المُدمجة

يُقترح إصلاح المناهج على ثلاثة مستويات متكاملة: المستوى الأول إنشاء مساقات مستقلة جديدة فى «البلاغة الشرعية التطبيقية» تعنى بثلاثة محاور محددة: تحليل البنية البلاغية لنصوص الفقه والتفسير الكبرى، والتدريب العملى على إنتاج خطاب شرعى يُراعى متغيرات المتلقى والسياق والوسيلة، ودراسة الفارق بين نماذج الخطاب الشرعى الكلاسيكية الناجحة ونظيراتها المعاصرة (عياشى، ٢٠١١: ١٣٣).

والمستوى الثانى الدمج التدريجى لأسئلة البلاغة والتواصل فى مقررات الفقه والأصول والتفسير القائمة — وهو دمج يُريد الطالب أن يُحلّل طريقة تقديم الجرجانى لنظريته النظامية من الزاوية التداولية، وأن يقرأ استدلالات الشافعى فى الرسالة قراءةً حجاجية بلاغية إلى جانب قراءته الأصولية (الريسوني، ٢٠٠٠: ٩١).

والمستوى الثالث إدراج «مشاريع الخطاب الميدانى» ضمن متطلبات التخرج — كأن يُطلب من الطالب فى نهاية مرحلته الجامعية تقديم خطاب شرعى حول إحدى القضايا المعاصرة موجّه إلى

وقائع المؤتمر الدولي الرابع (التعليم العالي وقضايا المجتمع المعاصر) ٦-٧/٥/٢٠٢٦

جمهور غير متخصص، يخضع لتقييم أكاديمي يقيس الكفاءة البلاغية والتواصلية إلى جانب الصحة العلمية الشرعية (العبيسي، ٢٠١٧: ٧٢).

ثانياً: إصلاح التأهيل — الأكاديمي الشرعي الخطيب

تُوصي الدراسة بإدراج متطلب «الكفاءة الخطابية» ضمن اشتراطات التأهيل الأكاديمي في الدراسات الشرعية — شأنه شأن اشتراط اللغة الأجنبية وأخلاقيات البحث تماماً. وتتحدد هذه الكفاءة في أربع مهارات قابلة للقياس: إتقان فن الإلقاء أمام جمهور متنوع، والقدرة على الكتابة لغير المتخصصين دون إخلال بالمعيار العلمي، وإتقان مهارات الحجاج الأكاديمي والتنفيذ والمناظرة، والكفاءة في التواصل الرقمي المحترف (عباس، ٢٠٠٧: ٩).

وعلى مستوى التأهيل المستمر، تُوصي الدراسة بإطلاق برامج تطوير مهني إلزامية تُعنى بثلاثة مجالات: مهارات التواصل العلمي مع الجمهور العام، وتقنيات التبسيط الخلاق الذي لا يُفقر المعنى، وأدوات صناعة المحتوى الرقمي الشرعي المحترف (IIUM Research Management Centre, 2018: 34-38). وقد أثبتت تجربة الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا جدوى هذا التوجه؛ إذ أظهر تقييم مستقل صدر عام ٢٠١٨م أن خريجي البرامج التي دمجت مساقات التواصل الخطابي في الدراسات الشرعية أظهروا قدرة تواصلية مجتمعية أعلى بدرجة موثقة إحصائياً (IIUM Research Management Centre, 2018: 36).

ثالثاً: إصلاح المنظومة المؤسسية — قلب معادلة الحوافز

لن يتحقق الإصلاح الخطابي الفعلي ما لم تتغير منظومة الحوافز المؤسسية. ويستلزم ذلك خطوات ثلاثاً: أولها اعتماد معيار «الأثر الاجتماعي والتوصلي» ضمن معايير تقييم أداء أعضاء هيئة التدريس وترقيتهم (Fairclough, 1992: 64). وثانيها دعم إنشاء كراسي بحثية متخصصة في «الخطاب الشرعي المعاصر وبلاغته»، تُعنى بإنتاج الدراسات التحليلية التطبيقية وتُصدر دورياتٍ علميةً محكمة (الريسوني، ٢٠١١: ٢٠٤). وثالثها إنشاء وحدات تحكيم تُقيم الخطاب الشرعي المنتج في المؤتمرات والندوات من حيث الكفاءة البلاغية والتواصلية إلى جانب الكفاءة العلمية الشرعية (العبيسي، ٢٠١٧: ٧٠).

رابعاً: بناء نظرية في البلاغة الشرعية التطبيقية المعاصرة

ثمة حاجة ماسة إلى ما يمكن تسميته «مشروع النظرية التطبيقية في البلاغة الشرعية المعاصرة»: مشروع علمي يجمع الأصول البلاغية من التراث الإسلامي العريق وما أنجزه البلاغيون

الكلاسيكيون كالجاحظ والجرجاني والسكاكي، ويُحاوره مع ما أنجزته نظريات الحجاج والتداولية والتواصل الحديثة، ليستخلص منهما إطاراً نظرياً تطبيقياً يُعالج واقع الخطاب الشرعي المعاصر (الطلبة، ٢٠٠٨: ١٢). ويستلزم هذا البناء جهوداً جماعية تتعاون فيها ثلاث مجموعات: متخصصون في البلاغة الكلاسيكية، ومتخصصون في العلوم الشرعية، ومتخصصون في علم التواصل والحجاج المعاصر (خلوص، ٢٠٠١: ١٤).

«إن تجديد الخطاب الديني ليس مشروع فرد أو جهة، بل هو مشروع أمة يحتاج تضافر العلماء والتربويين والمتخصصين في علوم اللغة والتواصل. فمن تصدّى له وحده فقد أخطأ في التصدي، ومن رفضه جملةً فقد أخطأ في الرفض.» (طه عبد الرحمن، ٢٠٠٦: ٦١).

خامساً: استثمار الفضاء الرقمي — استراتيجية الحضور الواعي

يُمثّل الفضاء الرقمي ساحة المعركة الثقافية الأولى في عصرنا، وإذا أحجم الخطاب الشرعي الأكاديمي عن اقتحامه بحجة الهيبة العلمية أو الخشية من التبسيط المُخل، فإنه يُخْلِي هذه الساحة لمن لا يُحسن الخطاب الشرعي الصحيح ولا يُبالي بضوابطه. وقد أثبت كريستال أن اللغة الرقمية خلقت أنماطاً جديدة في التواصل تتسم بالسرعة والانتقائية والتشاركية والتفاعلية (Crystal, 2001: 87-94).

ويُقترح لتطوير الحضور الرقمي الشرعي الأكاديمي ثلاثة مسارات متكاملة: المسار الأول إنتاجي، يتمثل في تطوير محتوى شرعي رقمي متنوع يجمع بين العمق العلمي والجاذبية التواصلية. والمسار الثاني نقدي، يتمثل في تأهيل الطلاب والأكاديميين على تحليل المحتوى الشرعي الرقمي المنتشر ونقد إشكالياته البلاغية والمنهجية حتى يكونوا قادرين على الرد عليه بالحجة لا بالإدانة (Van Dijk, 2008: 60). والمسار الثالث استراتيجي، يتمثل في بناء حضور رقمي مؤسسي منسّق يُعبّر عن الموقف الشرعي العلمي الرسمي في القضايا المستجدة بسرعة تُلائم إيقاع الفضاء الرقمي دون التفريط في دقة الفتوى (IIUM Research Management Centre, 2018: 37).

سادساً: التعاون الدولي وتبادل النماذج الناجحة

لا يُستهان بدور التعاون الدولي في تسريع مسيرة الإصلاح؛ فالتجارب الإسلامية الناجحة في ماليزيا وتركيا وإندونيسيا والمغرب تُقدّم دروساً عملية يمكن تكييفها مع السياقات الأخرى. وتُوصي الدراسة بأن تُبادر المؤسسات الشرعية الكبرى كالأزهر الشريف ورابطة العالم الإسلامي وإيسيسكو إلى إنشاء شبكة تعاون دولية للبحث في «بلاغة الخطاب الشرعي المعاصر» (الريسوني، ٢٠١١:

وقائع المؤتمر الدولي الرابع (التعليم العالي وقضايا المجتمع المعاصر) ٦-٧/٥/٢٠٢٦

(٢١٠)، تشمل أهدافها توحيد معايير التأهيل الخطابي، وتبادل المناهج التي أثبتت نجاعتها، وتنظيم مؤتمرات دورية تجمع الباحثين في هذا الحقل البيئي (منظمة التعاون الإسلامي/إيسيسكو، ٢٠١٩: ٩٥).

الخاتمة:

بعد هذه الرحلة في مسالك بلاغة الخطاب الشرعي وإشكالياته وآفاقه، يمكن القول بصدق أكاديمي: إن الخطاب الشرعي يحمل حقاً أعظم من قدرته الراهنة على تبليغه. وهذه الجملة ليست انتقاصاً من الجهد الأكاديمي الشرعي — الذي يُعدُّ في مجمله رصيناً ومتواصلاً — بل هي دعوة إلى أن يتوسَّع مفهوم الكفاءة الشرعية ليستوعب بُعد الإيصال والتأثير، الذي هو جوهر وظيفة العلم الشرعي في الأمة.

أولاً: أبرز النتائج

- البلاغة في الخطاب الشرعي ليست زينةً مضافةً بل هي شرط فاعليته؛ فصحة المضمون شرط لازم لكنه غير كافٍ لتحقيق الأثر المنشود، وهو ما تُؤكِّده الأدلة النقلية من التراث الشرعي والأدلة التجريبية من علم الاتصال الحديث.
- يعاني الخطاب الشرعي الأكاديمي من فجوة بلاغية متعددة الأبعاد: الإطناب غير المقصود، والانغلاق الاصطلاحي، وضعف التوظيف السردى، وإغفال مقتضى الحال — وكل هذه تحتاج معالجةً منهجيةً لا ترقيعية.
- المعوقات البلاغية ذات جذور منهجية وتأهيلية ومؤسسية وثقافية وتكنولوجية متشابكة، تستلزم استراتيجية إصلاحية شاملة تعمل على المستويات جميعاً في آن واحد.
- التراث الإسلامي — من القرآن والسنة إلى الغزالي وابن القيم — يحتضن نماذج بلاغية خطابية شرعية باهرة يمكن توظيفها في بناء نظرية تطبيقية معاصرة.
- الثورة الرقمية أعادت رسم خريطة الجمهور إعادةً جوهرية، مما يفرض على المؤسسة الشرعية الأكاديمية مراجعة أساليبها الخطابية أو القبول بتراجع متصاعد في حضورها العام.

ثانياً: أبرز التوصيات

1. إلى مؤسسات التعليم العالي الشرعي: إدراج مساق «البلاغة الشرعية التطبيقية» ضمن المتطلبات الأساسية للتخرج.

وقائع المؤتمر الدولي الرابع (التعليم العالي وقضايا المجتمع المعاصر) ٦-٧/٥/٢٠٢٦

2. إلى وزارات التعليم: دعم إنشاء كراسي بحثية في «الخطاب الشرعي المعاصر وبلاغته» في الجامعات الكبرى.

3. إلى الهيئات العلمية الدولية: تبني برامج تأهيل خطابي للأئمة والمدرسين الدينيين تدمج الكفاءة الشرعية والمهارة البلاغية.

4. إلى الباحثين الأكاديميين: تكثيف الدراسات التحليلية النقدية للخطاب الشرعي المعاصر لرصد الواقع وتشخيص الإشكاليات.

5. إلى منتجي المحتوى الشرعي الرقمي: الاستثمار الواعي في تطوير المهارات البلاغية الرقمية مع صون المعيار العلمي.

المصادر والمراجع

أولاً: مصادر أولية:

ابن رجب الحنبلي (٢٠٠٥). الذيل على طبقات الحنابلة. تحقيق: عبد الرحمن العثيمين. الرياض: مكتبة العبيكان. ٥ مجلدات.

ابن القيم الجوزية (١٤٢٥هـ). بدائع الفوائد. تحقيق: علي بن محمد العمران. مكة المكرمة: دار عالم الفوائد. ٤ مجلدات.

ابن القيم الجوزية (١٩٧٣). إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، بيروت، دار الجيل.

ابن القيم الجوزية (١٩٩٤). زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة.

ابن القيم الجوزية (١٩٧٢). مدارج السالكين، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتاب العربي.

ابن فارس، أحمد (١٩٧٩). مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الفكر.

ابن منظور، محمد (١٩٩٤). لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط٣.

الجاحظ، عمرو بن بحر (١٩٩٨). البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي.

ط٧.

الجرجاني، عبد القاهر (١٩٩٢). دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، القاهرة، مطبعة

المدني، ط٣.

الجرجاني، عبد القاهر (١٩٩١). أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، جدة، دار المدني.

وقائع المؤتمر الدولي الرابع (التعليم العالي وقضايا المجتمع المعاصر) ٦-٧/٥/٢٠٢٦

الذهبي، شمس الدين (٢٠٠٦)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، بيروت، مؤسسة الرسالة.
السكاكي، يوسف بن أبي بكر (١٩٨٧)، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢.
الشاطبي، إبراهيم بن موسى (١٩٩٧)، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، الدمام، دار ابن عفان.

الغزالي، أبو حامد محمد (د.ت)، إحياء علوم الدين، بيروت، دار المعرفة، ٤ مجلدات.
القزويني، جلال الدين (٢٠٠٣)، الإيضاح في علوم البلاغة. ضبط: إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية

ثانياً: دراسات ومراجع حديثة:

أبو موسى، محمد حسن (١٩٨٠)، التصوير البياني: دراسة تحليلية لمسائل البيان، القاهرة، مكتبة وهبة.
الجابري، محمد عابد (٢٠٠٩)، بنية العقل العربي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط٨.
حبيبة، علي (٢٠٠٨)، الحجاج في القرآن الكريم: دراسة أسلوبية، رسالة دكتوراه، الجزائر، جامعة الجزائر.
حمودة، عبد العزيز (١٩٩٨)، المرايا المحدبة: من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة، ٢٣٢ع، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
خلوص، إدريس (٢٠٠١)، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، منشورات كلية الآداب ببنوبة، تونس.

الريسوني، أحمد (٢٠٠٠)، الاجتهاد بين النص والواقع والمصلحة، دمشق، دار الفكر.
الريسوني، أحمد (٢٠١١)، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، الدار البيضاء، دار الأمان، ط٤.
الزحيلي، وهبة (١٩٩٧)، الفقه الإسلامي وأدلته، دمشق، دار الفكر، ط٤.
طه عبد الرحمن (٢٠٠٠)، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط٢.
طه عبد الرحمن (٢٠٠٦)، روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، بيروت، المركز الثقافي العربي.
الطلبة، محمد سالم الأمين (٢٠٠٨)، الحجاج في البلاغة المعاصرة، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة.
عباس، فضل حسن (٢٠٠٢)، إعجاز القرآن الكريم، عمان، دار الفرقان، ط٣.
عباس، فضل حسن (٢٠٠٧)، البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني، عمان، دار الفرقان، ط٩.

وقائع المؤتمر الدولي الرابع (التعليم العالي وقضايا المجتمع المعاصر) ٦-٧/٥/٢٠٢٦

العبيسي، عبد الرحمن (٢٠١٧)، *تدريس البلاغة في الجامعات العربية: دراسة تحليلية نقدية*، مجلة عالم التربية، القاهرة، مج ١٨، ع ٦٢، ص ٤٥-٨٢.

عياد، شكري (١٩٨٢)، *مدخل إلى علم الأسلوب، الرياض، دار العلوم*.

عياشي، ادراوي (٢٠١١)، *الاستلزام الحوارية في التداول اللساني*، بيروت، دار الأمان.

القرضاوي، يوسف (١٩٨٩)، *الخصائص العامة للإسلام*، القاهرة، مكتبة وهبة، ط ٥.

مجلة فقه المستجدات (٢٠٢١)، *أخلاقيات الذكاء الاصطناعي من منظور إسلامي*، دبي، الأكاديمية الإسلامية للعلوم، مج ٣، ع ٨، ص ١٥-٤٢.

منظمة التعاون الإسلامي / إيسيسكو (٢٠١٩)، *تقرير حالة التعليم الديني في دول العالم الإسلامي*، جدة، مركز إيسيسكو للبحوث التربوية.

ثالثاً: المراجع الأجنبية

Austin, J. L. (1975), **How to Do Things with Words**, 2nd ed, Oxford, Oxford University Press.

Crystal, D. (2001), **Language and the Internet**, Cambridge, Cambridge University Press.

Fairclough, N. (1992). **Discourse and Social Change**, Cambridge, Polity Press.

Grice, H. P. (1989), '**Logic and Conversation.**' In **Studies in the Way of Words**. Cambridge, Harvard University Press, pp,22-40.

IIUM Research Management Centre (2018), **External Review Report, Department of Fiqh and Usul al-Fiqh**, Kuala Lumpur, IIUM Press.

Kahneman, D. (2011), **Thinking, Fast and Slow**. New York, Farrar, Straus and Giroux.

Kepel, G. (1985), **The Prophet and Pharaoh: Muslim Extremism in Egypt**, Trans,J, Rothschild, London, Al Saqi Books.

Leech, G, (1983), **Principles of Pragmatics**, London, Longman.

Perelman, C & Olbrechts-Tyteca, L (1969), **The New Rhetoric, A Treatise on Argumentation**, Trans ,J. Wilkinson & P. Weaver. Notre Dame, University of Notre Dame Press.

Ramadan, T. (2004), **Western Muslims and the Future of Islam**, Oxford, Oxford University Press.

وقائع المؤتمر الدولي الرابع (التعليم العالي وقضايا المجتمع المعاصر) ٦-٧/٥/٢٠٢٦

Searle, J. R. (1969), **Speech Acts An Essay in the Philosophy of Language**.
Cambridge, Cambridge University Press.

Van Dijk, T. A. (2008), **Discourse and Power, Contributions to Critical Discourse
Studies**, New York, Palgrave Macmillan.